



## بكائيات تاريخية على هامش القمة العربية ( 2- 2 )

بقلم: رائف محمد الويشي

29 مارس 2010

تحدثنا في الحلقة الماضية عن بكائية تاريخية تمثلت في حلف استراتيجي بين أوروبا الصليبية وجيش المغول التتار الصاعد الواعد في حينه ، يقوم على أساسه المغول التتار باجتياح الدول الإسلامية وهزيمة جيوشها ، كي يتسنى لأوروبا الصليبية أن تجني ثمار ذلك بالوصول إلى بيت المقدس دون أن تعرض جيوشها لمخاطر القتال ، وذلك بعد أن فشلت سبع محاولات صليبية على مدى 150 عاما تقريبا وتكبدت أوروبا خلالها أفدح الخسائر البشرية والمادية ، وقد ابتلع المغول التتار الطعام وحاربوا معركة ليست لهم دون أن يفطنوا إلى الخديعة البابوية التي وقعوا فيها .. وتحدثنا في الحلقة الماضية أيضا عن اجتياح المغول التتار لعاصمة الخلافة بغداد في العام 1258 م وتدميرهم للمدينة وقتلهم لمليون من سكانها وموت مثلهم بفعل الطاعون ، كما تحدثنا عن دخول جيش هولوكو حلب ودمشق حيث ارتكب المجازر هناك ، وهو ما دفع حاكمهما يوسف الأيوبي - حفيد صلاح الدين !!- إلى الهرب إلى فلسطين ، وقد تحركت جحافل المغول التتار بسرعة فاستولت على نابلس ثم القدس ثم غزة وارتكبت في طريقها المجازر العديدة ..

في حديث اليوم نستكمل مشوارنا بالتطرق إلى بكائية أخرى ، هي - وبلا مبالغة - نسخة تطابق أصلا نعيشه الآن في البلاد العربية عامة وفي مصر بصورة خاصة ..

سنرى كيف نهضت الأمة وهي في أضعف حالاتها عندما أتاها القائد الشريف والمحترف ، كي تنتصر في فترة زمنية قدرت بعام واحد ، وهو ما يعد إعجازا بالمقاييس البشرية ، لكن مقاييس السماء تختلف في كثير من الأحيان عن مقاييس البشر ، وقرأت معي قوله تعالى " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " ، وقوله تعالى " وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى " ، وقوله تعالى " ولا يعلم جنود ربك إلا هو " ..

صاحب تلك المعجزات العسكرية هو القائد المظفر قطز ، والذي قلب الهزائم والكوارث إلى نصر مبين - وفي خلال عام واحد - بعد أن تسلم زمام الأمور بمصر في عام 1259 م ..

### من هو هذا القائد ؟

هو محمود بن ممدود بن خوارزم شاه ، ينتمي إلى العائلة الحاكمة في بلاد خوارزم ، فهو ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وقد قتل معظم أفراد العائلة الخوارزمية الحاكمة على يد جيش هولوكو بما فيهم السلطان جلال الدين وكذلك أولاده ..

كان قطز شرسا في صباه مع المغول التتار فأطلقوا عليه " قطز " والتي تعني بلغتهم " الكلب الشرس " .. باعه جيش هولوكو إلى تجار الرقيق ثم بيع من يد إلى يد وانتقل إلى دمشق ثم انتهى به التنقل إلى " عز الدين أيبك " والذي كان سلطان المماليك بمصر .. تدرج في المناصب حتى صار قائدا للجيش المصري عندما تولى " عز الدين أيبك " السلطة مع زوجته شجرة الدر ..

وُصف قطز بأنه كان شاباً أشقر ، كث اللحية ، بطلاً شجاعاً عفاً عن المحارم ، مترفعاً عن الصغائر مواظباً على الصلاة والصيام وتلاوة الأذكار ، تزوج من بني قومه ولم يخلف ولداً ذكراً بل ترك ابنتين لم يسمع عنهما الناس شيئاً بعده ..

### ويروي شمس الدين الجزري في تاريخه عن "سيف الدين قطز" ما يلي :

".. لما كان في رِقِّ موسي بن غانم المقدسي بدمشق ، ضربه سيده وسبّه بأبيه وجده ، فبكى ولم يأكل شيئاً سائر يومه ، فأمر الفراش أن يترضاه ويطعمه ، فروى الفراش أنه جاءه بالطعام وقال له: كل هذا البكاء من لظمة ؟ فقال قطز: إنما بكائي من سبِّه لأبي وجدي وهما خير منه ، فقلت: من أبوك؟ واحد كافر؟!.. فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم ، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك ، فسكت وترضيته .. كما يروي أنه أخبر في صغره أحد أقرانه أنه رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وقد بشّره بأنه سيملك مصر ويكسر التتار " ..

### الوضع الداخلي لمصر قبل قطز :

كي نتعرف على عبقرية هذا الشاب الزاهد الفارس النقي النقي ، فلا بد أن نعود إلى الوراء عدة سنوات سبقت توليه الحكم في مصر كي نرى الأوضاع المنهارة في مصر سياسياً وعسكرياً واقتصادياً واجتماعياً ، وكيف حولها هذا القائد العبقرى في ظرف عام واحد لتكون نصراً مبيناً على أكبر قوة على وجه المعمورة في ذلك ..

إننا لا نبالغ إذا قلنا أن سيف الدين قطز كان مبعوث العناية الإلهية ، ليس لمصر فحسب ، بل للبشرية كلها التي تدين له بالولاء حيث أنقذها من همجية جيوش التتار التي ارتكبت المذابح في عدة أماكن حول العالم ..

### نستطيع إذن أن نحدد الأوضاع السيئة الكارثية المختلفة التي كانت تعيشها مصر في عام 1259 م - العام الذي تولى فيه قطز المسئولية - كما يلي :

**- سياسياً :** كان الوضع متأزماً داخل مصر إلى حد بعيد ، كان هناك انقلابات وقتال وقتل بين الأطراف المتصارعة على الحكم ، لا عجب إذن أن يحكم مصر في تلك السنوات العشر خمسة حكام وهم : الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ثم ولده توران شاه والذي قتل ثم شجرة الدر زوجة الملك الصالح حيث رفض الكثير من الأمراء والمماليك تقديم الولاء لامرأة مما اضطرها للزواج من قائد المماليك عز الدين أيبك وتنصيبه كحاكم لمصر بدلاً منها وقد قتلته بعد زواجه من أخرى ثم قتلت هي نفسها على أيدي جواري الزوجة الأولى لعز الدين أيبك ، ثم ابنه السلطان نور الدين على أيبك في عام 1257 م ( كان عمره 15 عاماً ) حيث كان قطز وصياً عليه..

**- عسكرياً :** كانت هناك ثلاث مشاكل عسكرية تواجه قطز ، وذلك على النحو التالي :

**أولاً :** مشكلة كارثية الحجم وتتمثل في وصول التتار إلى غزة في عام 1259 م ، وهو ما يعنى أنهم على قد أصبحوا على أبواب مصر الشرقية ..

**ثانياً :** هروب الكثير من أمراء وقادة الجيش المصري خلال مرحلة الصراع على الحكم إلى سورية ومنهم القائد بيبرس والذي حاول الاستيلاء على الحكم وفشل ، وقد أقنع بعض هؤلاء حاكم دمشق وحلب - الناصر يوسف الأيوبي - بغزو مصر بمساعدتهم وقد رحب بالفكرة بهدف إعادة مصر المملوكية إلى الدولة الأيوبية ، كما رحب بالفكرة أيضاً حاكم الكرك ( الأردن الآن)..

**ثالثاً :** انضمام بعض حكام المناطق إلى جيش التتار لحماية أنفسهم من القتل وكان من هؤلاء الملك السعيد حسن بن عبد العزيز حاكم بانياس في الشام ، والذي انضم بجيشه إلى قوات التتار ليساعدهم في محاربة المسلمين ..

**- اقتصادياً :** كانت هناك أزمة اقتصادية طاحنة تمر بالبلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة ، ومن جراء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها في الشام ، ومن جراء الفتن والصراعات على المستوى الداخلي ..

**- اجتماعياً :** دب الذعر والهلع بين سكان مصر من قدوم جيش هولوكو إليها ، خاصة بعد أن عرفوا ما فعله المغول التتار في العراق وسورية ، كما أخذت الجاليات المغاربية في الرحيل عن مصر عائدة إلى بلادها الأصلية .. من ناحية أخرى ، كان انتشار

البدع والخرافات بين الناس قد أصبح شيئاً ظاهراً ( ففي وقت اجتياح المغول التتار لعاصمة الخلافة رفع الناس في أرجاء الإمارات الإسلامية كتاب البخاري على رؤوسهم وأخذوا يدعون الله ببركة البخاري بأن يطرد المغول التتار عن بلاد المسلمين ، والأولى أن يتمسكوا بكتاب الله بدلاً من كتاب البخاري ) ..

### خطوات عملية وسريعة لتحقيق النصر " المستحيل " :

تمثل قمة الإدارة الناجحة دقة تشخيص المشكلة ثم التحرك السريع لإيجاد الحلول ، هذا هو ما فعله تماماً القائد الكبير قطز ، ونستطيع أن نحدد تلك الخطوات كما يلي :

**1- كان يجلس على كرسي الحكم سلطان طفل لمدة سنتين** وتتحكم به نساء القصر وبجانبه مجموعة من الأمراء المستبدين الذين يؤثرون مصالحهم الخاصة على مصالح البلاد ..

أدى هذا الوضع الشاذ إلى ضعف هيبة الحكم في مصر ، وزعزعة ثقة الناس بملكهم وإشعال الصراع على السلطة وتقوية عزيمة الأعداء الذين وصلوا بالفعل إلى حدود مصر الشرقية .. لم يكن هناك أمام قطز من مفر من عزل السلطان نور الدين في عام 1259 م وتولى زمام أمور مصر بنفسه وتحمل المسؤولية ، وهي في هذه الظروف تعتبر مهمة ميثوس من نجاحها ..

**2- راسل قطز الناصر يوسف الأيوبي** أمير دمشق وحلب – قبل أن تسقط مملكته – عارضاً عليه وضع الخلافت جانبا والإتحاد بين مصر والشام من أجل التصدي للتتار المغول الذين دمروا العراق ..

عرض قطز الزاهد على الناصر يوسف الأيوبي وحدة مصر وسوريا على أن يكون – أي الناصر الأيوبي - ملكاً لمصر والشام ، فإن شكك في نية قطز فيستطيع قطز أن يمدّه بالقوات للمساعدة في قتال التتار ، كما ترك قطز للملك الناصر اختيار قائد الجيش المصري الذي يذهب لنجدته في الشام ..

رفض الناصر يوسف الأيوبي كل عروض قطز ، سقطت كل من حلب ودمشق في يد التتار وفر الملك الناصر الأيوبي إلى فلسطين وانضم ما تبقى من جيشه بعد فراره إلى مصر والتحقوا بجيش قطز ، فازدادت بذلك قوة الجيش المصري ..

**3- راسل قطز كل الأمراء والقادة الهاربين من مصر** إلى الشام وعلى رأسهم قائد المماليك البحرية بيبرس وعرض عليهم العفو العام والعودة إلى أعمالهم من أجل مصلحة البلاد .. استجابوا جميعاً لدعوته وعادوا إلى مصر فأحسن استقبالهم وأنزلهم منازلهم ووضع بيبرس قائداً للجيش المصري ..

**4- كان لا بد من زيادة الضرائب** على الناس للإنفاق على الجيش الذي يسابق قطز الزمن في إعداده ، وكان لا بد من فتوى من كبير العلماء بذلك لأن المسلمين في دار الإسلام لا يدفعون إلى بيت المال سوى الزكاة ..

لجأ قطز إلى كبير العلماء العز بن عبد السلام - والذي كان حائزاً على ثقة الناس وقلوبهم - كي يدعو القوم إلى التبرع ، اشترط العالم الفقيه العز ابن عبد السلام عليه أن يبدأ هو – أي قطز – بنفسه ، ثم يليه عليه القوم بتقديم التبرعات ثم عامة الناس حتى يتساوى الجميع..

طلب العالم المجاهد من قطز أن يتخلى عن كل ممتلكاته ويبيع كل ممتلكاته ويديه في ذلك الأمراء وكبار القوم وتذهب التبرعات إلى بيت المال ، فاستجاب قطز على الفور .. أصدر العالم المجاهد فتوى إلى عامة الناس بالتبرع أسوة بما فعله حاكم مصر والنبلاء ، فتدفقت التبرعات على بيت المال من كل أنحاء مصر ..

**5- كان لا بد من زيادة عدد الجيش المصري** فطلب القائد المغوار قطز من العالم المجاهد العز بن عبد السلام أن يشرح للناس ضرورة الجهاد لحماية ديار المسلمين وفضل الشهادة في سبيل الله دفاعاً عن الدين والأرض والعرض ، فلما فعل تدفق الآلاف من المتطوعين إلى جيش قطز ..

**بينما كان قطز يعد الجيش والشعب للقاء التتار وصل رسل هولاء يحملون رسالة تهديد له ، وجاء وفيها ما يلي :**

" بسم إله السماء الواجب حقه ، الذي ملكنا أرضه ، وسلطاناً على خلقه .. إننا جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطاناً على

من حل به غيظه .. فلکم بجميع الأمصار معتبر ، وعن عزمنا مزدجر .. فاتعظوا بغيرکم ، وسلّموا إلینا أمرکم .. قبل أن ينكشف الغطاء ، ويعود علیکم الخطأ .. فنحن لا نرحم من بکی ، ولا نرق لمن اشتكى .. فتحنا البلاد ، وظهرنا الأرض من الفساد .. فعليکم بالهرب ، وعلینا بالطلب .. فأی أرض تأویکم ؟ وأی بلاد تحمیکم ؟ وأی ذلك ترى ؟ ولنا الماء والثرى ؟ فما لکم من سیوفنا خلاص ، ولا من أيدينا مناص .. خیولنا سوابق ، وسیوفنا صواعق ، ورماحنا خوارق ، وسهامنا لواحق ، وقلوبنا كالجبال ، وعدادنا كالرمال .. الحصون لدينا لا تمنع ، والجیوش لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤکم علینا لا یسمع ، لأنکم أكلتم الحرام ، وتعاضتم عن رد السلام ، وخنتم الأیمان ، وفش فیکم العقوق والعصیان .. فأبشروا بالمذلة والهوان (فالیوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون) (وسیعلم الذین ظلموا أي منقلب ینقلبون).. وقد ثبت أنه نحن الكفرة وأنتم الفجرة .. وقد سلطنا علیکم من بیده الأمور المدبرة ، والأحكام المقدره .. فكثیرکم عندنا قلیل ، وعزیزکم لدينا ذلیل ، وبغیر المذلة ما لملوكم علینا من سبیل .. فلا تطیلوا الخطاب ، وأسرعوا رد الجواب .. قبل أن تضرم الحرب نارها ، وتوري شرارها .. فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ، ولا كتاباً ولا حرزاً ، إذ أرتکم رماحنا أزاً.. وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادکم منكم خالية ، وعلى عروشها خاوية .. فقد أنصفناکم ، إذ أرسلنا إليکم ، ومننا برسنا علیکم " ..

**جمع قطز القادة والمستشارين وأطلعهم على الرسالة ، وكان من رأي بعض القادة الاستسلام للمغول التتار وتجنب ويلات الحرب ، فما كان من قطز إلا أن قال " أنا سألقى التتار بنفسی .. یا أمراء المسلمین ، لکم زمان تأکلون من بیت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، أنا متوجه ، فمن اختار الجهاد یصحبني ، ومن لم یختر ذلك یرجع إلى بیته ، وإن الله مطلع علیہ ، وخطیئة حريم المسلمین فی رقاب المتأخرین عن القتال " ..**

تحمس القواد والأمراء لرؤية قائدهم یقرر الخروج لمحاربة التتار بنفسه ، ثم وقف یخاطب الأمراء وهو بیکی ویقول : " یا أمراء المسلمین، من للإسلام إن لم نكن نحن " ، فوقف النبلاء والأمراء وهم بیكون یعلنون موافقتهم علی الجهاد ضد التتار مهما كانت التضحيات فی سبیل ذلك ..

أمر قطز بقطع أعناق رسل هولاکو وعلق رؤوسهم علی باب زويلة لحث الشعب علی القتال وإظهار البطولات ، إلا أنه أبقى أحدهم لیحمل أجساد الرسل لهولاکو .. أصدر قطز أمراً بإعلان الجهاد فی سبیل الله فی الدیار المصرية وشرح وجوبه وفضائله ، كما نزل العالم المجاهد العز بن عبد السلام ینادی فی الناس بنفسه ، فلبی النداء الكثير من سكان مصر.

**كان من فضل الله علی المسلمین** أن صادف عام 1260م وصول خبر وفاة الخاقان الأعظم للمغول "منكوخان" فی قراقوم ، فتم استدعاء أولاد وأحفاد " جنكيز خان " إلى مجلس الشورى المغولي لانتخاب خليفة له .. اضطر هولاکو إلى الانسحاب مع معظم جيشه وعاد معه 100 ألف مقاتل ، وأبقى علی 20 ألف مقاتل مع " كتبغا " أمهر قاداته ، وكان هولاکو قد أرسل قبل عودته رسالته السابق ذكرها إلى قطز ..

**كما كان من فضل الله أيضا** أن النصارى – وهم المحرضون لكل تلك المجازر – قد شعروا أن جيش هولاکو الذي كان قد دخل فی الإسلام سیتحد مع المسلمین وبشكل تهديدا علیهم ، فأقنعوا هولاکو بضرورة العودة إلى دياره سريعا مع جيشه بحجة أن أخاه سیسيطر علی الحكم ، فسحب هولاکو أغلب قواته وعاد أدراجه لملاقاة أخیه ..

**يقول الأسقف " دى مسنيل " – نائب مدير البعثات التبشيرية – فی كتابه الذي أشرنا إليه فی الحلقة الأولى ما يلي :**  
" إن النصارى هم الذین حرضوا هولاکو علی الرحیل إلى بلاده ومحاربة أخیه هناك بسبب موالاته للإسلام ، وهكذا نرى الإسلام الذي كان قد أشرفت قوته علی الزوال ، یسترد مكانته ویستعيد قوته ویصبح أشد خطراً من ذي قبل " ..

رفض قطز نصيحة بعض قاداته بالانتظار فی مصر حتى یأتیه جيش التتار المغول ، كان مقتنعا أن خیر وسيلة فی الدفاع هی الهجوم ، ربما كانت مأساة العراق ماثلة فی ذاكرته ..

تقدم قطز علی رأس الجيش المصري واجتاح حامية التتار المغول المتواجدة فی غزة ، ثم واصل طريقه لملاقاة جيش " كتبغا "

والذي تتواجد قيادته في منطقة البقاع بالقرب من مدينة بعلبك ..

كان " كتبغا " في ذات الوقت متحفزا لملاقاة جيش قطز ، جمع أركان قيادته لمناقشة الموقف في ضوء سقوط حاميته المتقدمة في غزة ، أشار عليه بعض قادته بضرورة عدم التحرك وتأجيل المواجهة مع الجيش المصري حتى يرسل هولاكو الإمدادات إليه من الجيش الكبير الذي انسحب به عائدا إلى عاصمته قراقوم ..

كان معروفا عن " كتبغا " التغطرس والاندفاع فرفض نصيحة قواده وقرر التحرك لملاقاة الجيش المصري .. كان جيش " كتبغا " مكون من 20 ألف مقاتل مدرب لخوضهم الكثير من المعارك ويغلب فيه تواجد الفرسان ، كان جيش قطز مكون أيضا من 20 ألف مقاتل لكنه جيش فقير وغير مدرب وفيه نسبة كبيرة من المتطوعين عديمي الخبرة ..

**التقى الجيشان واللذان كانا يسعيان إلى لقاء بعضهما البعض في منطقة تسمى عين جالوت بالقرب من مدينة نابلس في يوم الجمعة 25 رمضان 685 هـ الموافق 6 سبتمبر 1260 م ..**

كان " بيبرس " هو القائد الميداني للجيش المصري واكتفى قطز بمراقبة جيشه من خلال التلال المطلة على منطقة القتال في عين جالوت .. تمكنت قوات " كتبغا " من ضرب أجنحة الجيش المصري وكاد أن ينهزم ..

نزل القائد المغوار قطز من موقع قيادته خلف التلال وقاد قوات القلب بنفسه ، خلع غطاء رأسه الحديدي لإشعال الحماس في قلب قواته لدفعهم إلى القتال حتى الشهادة ، كأنه حفظ درس العالم العز بن عبد السلام في أن يبدأ بنفسه دائما حتى في أتون المعارك الطاحنة ، كاد الجنود التتار أن ينالوا منه وقتلوا فرسه لولا أن أسعفه أحد جنوده ، فترجل وأخذ يصيح صيحته التي عرفه المسلمون بها بعد ذلك " وإسلاماه " ..

هرب الكثير من جيش التتار من أرض المعركة بعد أن أحدث نزول قطز إلى قلبها تحولا عكسيا في أحداثها وتركوا قائدهم " كتبغا " يقاتل مع بعض جنوده حتى سقط قتيلًا ..

طارد القائد قطز التتار حتى دخل دمشق منتصرا في أواخر شهر رمضان فاستقبله أهلها بزيينات النصر .. تحرك جيش قطز إلى حلب لتحريرها ومنها إلى العراق .. في عدة أسابيع قليلة كان التتار قد غادروا جميع المناطق العربية التي احتلوا ..

**لا بد إن أن نقف قليلا أمام هذا الحدث لتحليله نظرا لتشابه معالمه مع ما يحدث الآن في مصر ، سواء على الصعيد الداخلي المتمثل في فساد هرم السلطة أو الفقر واليأس من غد أفضل ، أو ما يحدث على الصعيد الخارجي المتمثل في العدو الصهيوني الذي يحتل المقدسات ويعقد الصفقات مع القيادات العربية الخائنة ..**

- **كان يمكن لقطز** أن يعقد اتفاقا خاصا مع جيش هولاكو المتواجد على حدود مصر الشرقية في غزة للنجاة بنفسه وضمنا مستقبله كما فعل من سبقه ، خاصة إذا أخذ في الحسبان الفارق العسكري بين الطرفين ..

- **كان يمكن لقطز** أن ينعم بالثروات ويأمن بدفء الجوّاري من حوله وينجب منهن الكثير من الولدان كي يخلفه واحد منهم في حكم مصر ، خاصة أنه ولد في عائلة ملكية في بلاد خوارزم ..

- **كان يمكن لقطز** أن يصدر فرمانا سلطانيا يقضى بمصادرة أموال المصريين والتبرع بها لصالح الجهود الحربي معتمدا على فتوى من مشايخ السلطان الذين يقبلون الأيادي وينعمون ببعض من عرض الدنيا ..

- **كان يمكن لقطز** أن يصدر أمرا عسكريا بالتجنيد الإجباري للشعب المصري ولا يفتح باب التطوع ، فيقف جنوده على قارعة الطريق ويفتحون المنازل كي يلتقطون الرجال الجوعى والمنهزمين أمام أنفسهم ويرسلونهم إلى محرقة أخرى أشد فتكا كي يلقوا حتفهم فيها ..

- **كان يمكن لقطز** أن يبقى على قواته في مصر وينتظر أن تكون المواجهة الكبرى مع جيش " كتبغا " على الأرض المصرية ..

- **كان يمكن لقطز** أن يبقى في القاهرة لمراعاة شؤون الدولة ويكتفي بتواجد قائد الجيش بيبرس على رأس القوات المتوجهة إلى لقاء جيش " كتبغا " ، كانت البروتوكولات العسكرية – وما يصاحبها من مظاهر كاذبة - تقتضى ذلك خاصة مع غياب هولاء عن المعركة..

- **كان يمكن قطز** أن يكتفي بتواجده في مقر قيادته المتقدم من وراء التلال في عين جالوت يشاهد ويراقب سير المعارك ولا ينزل إلى قلب المعارك مقاتلا كما يفعل الجنود ..

كان يمكن للقائد الأسطوري أن يفعل كل ما سبق ، لكنه - كونه زاهدا في الحكم - كان يفكر ومعية الله معه حيث ذهب ، فكانت يده وعقله ولسانه وقلبه .. لقد أنقذ الله البشرية كلها وفي ظرف عام واحد من همجية وبربرية التتار على يد هذا القائد الأسطوري والفريد من مثيله في صفحات التاريخ ..

إن كل الشعوب الحرة مدينة لهذا القائد ، لقد حول قطز الهزيمة المؤكدة إلى نصر مبين والفقر المضجع إلى شبع وافر والكفر إلى إيمان والمذلة إلى كبرياء والاعتصاب إلى شرف وعزة ..

لقد قتل هذا القائد البطل بيد قائده بيبرس بالقرب من مدينة الشرقية بعد أن أتم مهمته على أكمل وجه ، وذلك قبل يوم واحد من إتمامه للعام الأول من توليه مقاليد المسؤولية في مصر ، كأن الله كان قد خلقه فقط لأداء مهمة واحدة وعاجله للبشرية كلها كي تنتهي حياته وهو شاب بانتهاج تلك المهمة ..

انفرد به الخائن بيبرس – والذي كانت غريزة الانقلاب والطمع تجرى في دمه منذ زمن – فطعنه مع رفاقه أثناء رحلة صيد وتولى على الفور مقاليد الحكم ليصيب عرضا زائلا من مغام الدنيا ، وقد أوردت بعض الكتب أن قطز قال له وهو يشرف على الموت " كنت سأضعك نانبا لي ، لم فعلت ذلك؟! " ..

لكن الملاحظ أن الشعب المصري لا يعرف تاريخ قطز البطولي ، بينما يعرف بيبرس لأن الحكام أطلقوا اسمه على بعض المناطق الجغرافية في مصر لتنشيط ذاكرة الشعب به ، وربما يطرح هذا التناقض نفسه على عقول الباحثين !!

إن النصر المبين الذي أحرزه قطز على جيش هولاء - والذي يمثل معجزة بمقاييس اليوم - يلقي بأعباء نفسية على كل من يتولى الحكم في مصر .. من الطبيعي أن يسأل الناس الحاكم حين يعرفون قطز ويقرؤون ما فعله : لم لا تفعل كما فعل قطز؟! .. على الحاكم المصري إذن أن يغتال التاريخ ويحذف قطز من بين سطورهم ، حتى لا يقترب هذا السؤال إلى أذهان الشعب !!

الثابت أن قطز قد تولى المسؤولية في مصر عاما كاملا إلا يوم واحد ، وخلفه بيبرس لمدة 18 عاما ، الثابت أيضا أن عصر بيبرس قد تميز بتواجد كثيف لعلماء الأمة ..

لقد ظهر في عصره ابن تيمية النجيب ابن القيم ، والمحدث ابن كثير ، والمؤرخ الحافظ الذهبي والذي قال فيه العلماء " لو جلس الذهبي ومر أمامه أمه النبي (ص) من الصحابة والتابعين وتابعيهم لأخبر عن تفاصيل كل فرد فيهم ، مولده وسيرته واسم أمه وأبيه ومن شيوخه ومن تلاميذه ومتى مات " ، ظهر في عصر بيبرس أيضا الحافظ ابن حجر العسقلاني وتلميذه جلال الدين السيوطي ، والإمام أبو زكريا بن شرف النووي ، والمؤرخ تقي الدين المقرئزي ..

إن هذه الكوكبة من العلماء الذين ظهوروا في عصر بيبرس يشكلون العمود الفقري للتراث الإسلامي حتى هذه اللحظة ، وتقتضى أمانة الباحث أن نذكر تلك الحقيقة والتي لا تغير من طبيعة جريمة الاغتيال التي تعرض له البطل المغوار قطز على يد قائده الخائن بيبرس ، فاتقى شر من أحسنت إليه ..

لكن أمانة الباحث أيضا تجعلنا نؤكد أن الصفات التي توافرت في قطز – من تحمل للمسئولية وقوة في العطاء وزهد في الحكم وتقوى في العبادات – هي التربة التي وفرت هذا الكم الهائل من العلماء .. كما أن نفس الأمانة تجعلنا نؤكد أنه لو كان الله تعالى قد أمد في عمر هذا القائد المغوار لكانت مصر الآن في عداد الدول العظمى ..

يستطيع القارئ أن ينظر من حوله كي يرى بأم عينيه تشابه المواقف بين وقت التتار قبل قطز وبين وقتنا الحالي .. قدراتنا العسكرية وصلت إلى مستوى متدني للغاية مقارنة بتلك التي عليها إسرائيل ، تماما كما كان الوضع وقت التتار .. كل قائد عربي يسعى لعقد الاتفاقات الثنائية مع أمريكا – ومعها إسرائيل – كي يؤمن نفسه ويبقى – وأولاده من بعده - على صدر شعبه ، تماما كما فعل الحكام العرب وقت التتار ..

**في الحلقة الأولى تناولنا أحوال عاصمة الخلافة التي كانت غنية في ثروتها ولكن يرأسها فاجر فاسد فسقطت على أيدي المغول التتار وقتل مليونان من أفرادها ، وفي الحلقة الثانية تكلمنا عن مصر الفقيرة المنقسمة فتولى أمرها قائد محترف وظاهر اليد فانتصرت في ظرف عام على المغول التتار ..**

إن الأمة العربية بصورة عامة ومصر على وجه الخصوص تنتظر الآن خروج قطز الحديث من مصر ، كي ينفذ عنها الهزيمة والفقر والضعف ، على مصر مسئولية تاريخية وقومية ولا تستطيع الهرب منها ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس – ميزوري – أمريكا

[elwisheer@yahoo.com](mailto:elwisheer@yahoo.com)

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

[www.thowarmisr.com](http://www.thowarmisr.com)